(سورة الجاثية)

{ حم }* { تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ }

{ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ لأيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ }

{ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ }

{ حم } جواب القسم محذوف لدلالة { تنزيل الكتاب } عليه، أي: أقسم بحقيقة الهوية، أي: الوجود المطلق الذي هو أصل الكل وعين الجمع، وبمحمد أي: الوجود الإضافي الذي هو كمال الكل وصورة التفصيل لأنزلنّ الكتاب المبين لهما أو يجعل { حم } مبتدأ و { تنزيل الكتاب } خبره على تقدير حذف مضاف أي: ظهور حقيقة الحق المفصلة، { تنزيل الكتاب } أي: إرسال الوجود المحمدي أو إنزال القرآن المبين الكاشف عن معنى الجمع والتفصيل في غير موضع كما جمع في قوله:

{ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ }[آل عمران، الآية:١٨] ثم فصّل بقوله:

{ وَٱلْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ }[آل عمران، الآية:١٨].

{ مِنَ الله } من عين الجمع { العزيز الحكيم } في صورة تفاصيل القهر واللطف اللذين هما. أما الأسماء ومنشؤها الكثرة في الصفات إذ لا صفة إلا وهي من باب القهر أو اللطف { إنّ في السموات والأرض } أي: في الكل{ لآيات للمؤمنين } بذاته لأن الكل مظهر وجوده الذي هو عين ذاته { وفي خَلقكم } إلى آخره، { آيات لقوم يوقنون } بصفاته لأنكم وجميع الحيوانات مظاهر صفاته من كونه حيّاً عالماً مريداً قادراً متكلماً سميعاً بصيراً، لأنكم بهذه الصفات شاهدون بصفاته.

{ وَٱخْتِلاَفِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }

{ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِ يُؤْمِنُونَ }

{ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ }

{ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }

{ و } في { اختلاف اللَّيل والنهار } إلى آخره، { آيات لقوم يعقلون } أفعاله، فإن هذه التصرفات أفعاله، وإنما فرّق بين الفواصل الثلاث بالإيمان والإيقان والعقل لأن شهود الذات أوضح وإن خفي لغاية وضوحه والوجود أظهر والمصدّقون به أكثر لكونه من الضروريات ومشاهدة الصفات أدق وألطف من القسمين الباقين فعبر عنها بالإيقان، فكل موقن مؤمن بوجوده ولا ينعكس وقد يوجد الإيقان بدون الإيمان بالذات لذهول المؤمن بالوجد الموقن بالصفات عن شهود الذات لاحتجابه بالكثرة عن الوحدة. وأما الأفعال فمعرفتها استدلال بالعقل إذ التغير في الأشياء لا بد له من تغيير مغير عند العقل لاستحالة التأثر بدون التأثير عقلاً. والأول فطري روحي، والثاني علمي قلبي، أي: كشفي ذوقي، والثالث عقلي. فالمحبوب الباقي على الفطرة يؤمن أولاً بالذات ثم يوقن بالصفات ثم يعقل الأفعال.

وأما المحب المحتجب عن الفطرة بالنشأة والمادة فهو في مقام النفس يعقل أولاً أفعاله ثم يوقن بصفاته التي هي مبادىء أفعاله، ثم يؤمن بذاته ولهذا

« لما سئل حبيب الله صلى الله عليه وسلم:

بم عرفت الله؟ قال: « عرفت الأشياء بالله ».

{ تِلْكَ } أي: آيات سموات الأرواح وأرض الجسم المطلق، أي الكل وآيات الأحياء من الموجودات وآيات سائر الحوادث من الكائنات { آيات الله } أي: آيات ذاته وصفاته وأفعاله { فبأيّ حديث بعد الله } وآيات صفاته وأفعاله { يُؤْمِنُون } إذ لا موجود بعدها إلا حديث بلا معنى واسم بلا مسمى، كما قال:

{ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ }

[النجم، الآية: ٢٣] أي: بلا مسميات { ويلٌ لكلِّ أفاك } منغمس في إفك الوجود المزخرف الباطل الموهوم، وإثم الشرك بنسبة الأفعال لذلك الوجود

{ يسمع آيات الله } من كل موجود قائل بلسان الحال أو القال { تتلى عليه } على لسان كل شيء إلا على لسان النبي وحده { ثم يصرّ مستكبراً } في نسبتها إلى الغير لاحتجابه بوجوده واستكباره وأنائيته لفرط تفرعنه أو لغرّته وغفلته

{ كأن لم يسمعها } لعدم تأثره بها { فبشره بعذاب } الحجاب المؤلم والحرمان الموبق.

{ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْئاً ٱتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ }

{ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْئاً

وَلاَ مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }

{ هَـٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ }

{ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ

وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }

{ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لأيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }

{ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ

لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ }

{ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ }

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ

وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ }

{ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ ٱلأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً

بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }

{ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا

وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ }

{ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً

وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ }

{ هَـٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ }

{ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ آمَنُواْ

وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ }

{ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ بِٱلْحَقّ

وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ }

{ وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً } بنسبتها إلى من لا وجود له أصلاً { أولئك لهم عَذَاب مهين } في ذلّ الإمكان { إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون } أي: في تسخير ما في السموات وما في الأرض لكم دلائل.

لمن يتفكر في نفسه من هو؟ ولماذا سخّر له هذه الأشياء؟

حتى الملكوت والجبروت منه من جهته فيرجع إلى ذاته ويعرف حقيقته وسرّ وجوده وخاصيته التي بها شرّف وفضل عليها وأهل لتسخيرها له فيأنف عن التأخر عن رتبة أشرفها فضلاً عن أخسها ويترقى إلى غايته التي يندب إليها. { ثم جعلناك على شريعة } طريقة من أمر الحق هي طريقة التوحيد { فاتَّبعها } بسلوكها على بينة وبصيرة { ولا تتَّبع } جهالات أهل التقليد { الذين لا يعلمون } علم التوحيد { إنَّهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً } أي: لن يدفعوا عنك ضرّاً بأفعالهم لعدم تأثيرهم ولا جهالة وحجاباً بأوصافهم لعدم قواهم وقدرهم وعلومهم، إذ لا حول ولا قوّة إلا بالله ولا وحشة بحضورهم إذ لا مناسبة بينك وبينهم فتستأنس بهم بل لا أنس لك إلا بالحق وهم لا شيء محض في شهودك فلا موالاة بينك وبينهم بوجه وإنما موالاة الظالمين ليست إلا مع الظالمين لما بينهم من الجنسية والمناسبة في الاحتجاب { والله وليّ المتّقين } أي: متولي أمور من اتقى أفعاله بالتوكل عليه في شهود توحيد الأفعال أو ناصر من اتقى صفاته في مقام الرضا بمشاهدة تجليات الصفات أو حبيب من اتقى ذاته في شهود توحيد الذات إذ الوليّ يستعمل بالمعاني الثلاثة لغة { هذا } أي: هذا البيان { بصائر } أي: بيّنات لقلوب الذين طالعوا بهجة الصفات، يطالعون بكل بصيرة تجلي طلعة صفته { وهدىً } لأرواحهم إلى محل شهود الذات { ورحمة } لنفوسهم من عذاب حجاب الأفعال { لِقَوْم يوقِنُون } هذه البيانات.

{ أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ }

{ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ }

{ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِآبَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }

{ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ }

{ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ }

{ أفرأيت من اتَّخذ إلهه هواه } الإله المعبود ولما أطاعوا الهوى فقد عبدوه وجعلوه إلهاً، إذ كل ما يعبد الإنسان بمحبته وطاعته فهو إلهه ولو كان حجراً { وأضلّه الله } عالماً بحاله من زوال استعداده وانقلاب وجهه إلى الجهة السفلية أو مع كون ذلك العابد للهوى عالماً بعلم ما يجب عليه فعله في الدين على تقدير أن يكون على علم حالاً من الضمير المفعول في { أضله الله } لا من الفاعل وحينئذ يكون الإضلال لمخالفته علمه بالعمل وتخلف القدم عن النظر لتشرب قلبه بمحبة النفس وغلبة الهوى كحال بلعام بن باعورا وأضرابه كما قال عليه السلام: « **كم من عالم ضلّ ومعه علمه لا ينفعه** « أو على علم منه غير نافع، لكونه من باب الفضول لا تعلق له بالسلوك { وخَتَم على سمعه وقلبه } بالطرد عن باب الهدى والإبعاد عن محل سماع كلام الحق وفهمه لمكان الرين وغلظ الحجاب { وجَعَل على بَصَره غشاوة } عن رؤية جماله وشهود لقائه { فمن يهديه من بعد الله } إذ لا موجود سواه يقوم بهدايته { أفلا تَذّكرون } أيها الموحدون { ما هي إلاَّ حياتنا الدنيا } أي: الحسيّة { نموت } بالموت البدني الطبيعي { ونحيى } الحياة الجسمانية الحسيّة

لا موت ولا حياة غيرهما ولا ينسبون ذلك إلا إلى الدهر لاحتجابهم عن المؤثر الحقيقي القابض للأرواح والمفيض للحياة على الأبدان.

{ قل الله يحييكم ثم يميتكم } لا الدهر { ثم يجمعكم } إليه بالحياة الثانية عند البعث، أو الله يحييكم لا الدهر بالحياة الأبدية القلبية بعد الحياة النفسانية ثم يميتكم بالفناء فيه ثم يجمعكم إليه بالبقاء بعد الفناء والوجود الموهوب لتكونوا به معه { ولله مُلْك السَّموات والأرض } لا مالك غيره في نظرالشهود { ويوم تقوم } القيامة الكبرى { يخْسَر } الذين يثبتون الغير إذ كل ما سواه باطل ومن أثبته واحتجب به عنه مبطل.

{ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }

{ هَـٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }

{ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ } { وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ }

{ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ }

{ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ }

{ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ }

{ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ }

{ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ }

{ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ }

{ وترى } يا موحد { كل أمّة جاثية } لا حراك بها إذ هي بنفسها ميتة غير قادرة

كما قال: { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ }
[الزمر، الآية:٣٠] أو تراها جاثية في الموقف الأول وقت البعث قبل الجزاء على حالها في النشأة الأولى عند الاجتنان وفيه سرّ.
{ كل أمّة تدعى إلى كِتابها } أي: اللوح الذي أثبت فيه أعمالها وتجسدت صورها وانتقشت فيه على هيئة جسدانية فإن كتابة الأعمال إنما تكون في أربعة ألواح أحدها: اللوح السفلي الذي يدعى إليه كل أمّة ويعطى بيمين من كان سعيداً وشمال من كان شقيّاً، والثلاثة الأخرى سماوية علوية أشير إليها فيما قبل.
وإنما قلنا هذا الكتاب هو اللوح السفلي لأن الكلام ههنا في جزاء الأعمال لقوله: { اليوم تجزون ما كنتم تعملون } وقوله: { إنّا كنا نَسْتَنْسخ ما كنتم تعملون } والناسخون هم الملكوت السماوية والأرضية جميعاً { فأمّا الذينَ آمنوا } الإيمان الغيبي التقليدي أو اليقيني العلمي { وعَملوا } ما صلح به حالهم في المعاد الجسماني من أبواب البرّ { فيدخلهم ربّهم في } رحمة ثواب الأعمال في جنّة الأفعال { وأمّا الذين كَفَروا } احتجبوا عن الحق بالكفر الأصلي والانغماس في الهيئات الجرمانية المظلمة بالإجرام بدليل قوله:
{ اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا } أي: نترككم في العذاب كما تركتم العمل للقائي في يومكم هذا لعدم اعترافكم، أو نعجلكم كالشيء المنسيّ المتروك بالخذلان في العذاب كما نسيتم لقاء يومكم هذا بنسيان العهد الأزلي.
{ فللّه الحَمْد } الكمال المطلق الحاصل للكل ببلوغ الأشياء إلى غاياتها وحصولها على أجلّ ما يمكن من كمالاتها { ربّ السموات } مكمل الأرواح ومدبرها { وربّ الأرض } مدبر الأجساد ومالكها ومصرّفها { ربّ العالمين } موجه العالمين إلى كمالاتهم بربوبيته إياهم { وله الكبرياء } أي: استعلاء ونهاية الترفع والكبر على كل شيء وغاية العلو والعظمة باستغنائه عنه وافتقاره إليه، فكل يحمده بإظهار كماله وجميع صفاته بلسان حاله ويكبره بتغيره وإمكانه وانخراطه في سلك المخلوقات المحتاجة إليه الفانية بالذات القاصرة عن سائر الكمالات غير ما اختصّ به{ وهو العزيزُ } القوي القاهر لكل شيء بتأثيره فيه وإجباره على ما هو عليه { الحكيم } المرتب لاستعداد كل شيء بلطف تدبيره، المهيىء لقبوله لما أراد منه من صفاته بدقيق صنعته وخفيّ حكمته.